التجريب مدارات الماهية والمصطلح

الدكتورة: فاطمـــة دخيـــة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تمهيد:

تصبح الكتابة الروائية شكلا من أشكال النشاط الاجتماعي، حيث يربط أصحاب النظرة السّوسيّولوجية للأدب" بنية العمل الأدبي، بالبنية الذهنية للمجموعة البشرية، التي يعيش المؤلف بين ظهرانيها، ذلك أن الفئة الاجتماعية المعينة تملك شكلا من الإيديولوجيا يطلق عليها اسم رؤية العالم(Vision du monde)[1]، التي هي أسلوب تعبير عن هذه الفئة الاجتماعية".[2]

انطلاقا من هذا التصور، يتعين علينا بيان العلاقة بين تحولات المجتمع ووعي الكتابة الروائية، حتى نصل– على وجه الاحتمال– إلى أن التجريب الروائي في الجزائر، هو علامة دالة على هذا التحول بالمعنى الحقيقي، وقيمة فنية ناتجة عن خلفية اجتماعية؛ لأن تطور الأشكال الأدبية، والرواية هنا، بصورة خاصة ليس أكثر من انعكاس للتطور الاجتماعي نفسه.

1/ <u>التجريب: المفهوم والمصطلح</u>

يبدو أن تحديدَ مفهوم التجريب من حيث الدلالات المفهومية والمعاني الاصطلاحية أمرٌ أساسيٌ لا محيد عنه، لكثرة تداوله وشيوعه بين الباحثين المختصين، وغير المختصين إضافة إلى ما يتضمنه هذا المفهوم من تنويع في الأساليب الفنية والأدوات الإجرائية من جهة، وما يحمله من نضج فكري وبعد إيديولوجي من جهة أخرى.

لذلك تقدم هذه المداخلة دراسة توضيحية لمفهوم التجريب بدءاً من دلالته اللغوية والاصطلاحية، مروراً بعلاقته مع مفاهيم مقترنة به مثل مفهوم الحداثة والأصالة والتّغريب، ليؤكد بذلك أن التّجريب مفهوم وليس مصطلحاً، وأنه ليس تقنية بقدر ما هو تعبير عن مواقف أو رؤى فلسفية وجودية وجمالية وتاريخية تحكم مجمل العملية الإبداعية.

المعنى اللغوي:

أ- لغة:

كلمة تجريب في اللغة مشتقة من الفعل" جرب" في قوله:" جرب يجرب، تجربة وتجريبا: الشيء الذي حاوله واختبره مرة بعد أخرى. ورجل مجرب: قد عرف الأمور وجربها... والمجرب: الذي جرب في الأمور وعرف ما عنده... ودراهم مجربة: موزونة".[3]

فالدلالة اللغوية للكلمة تكاد تكون واحدة في المعاجم الغربية والعربية والتجريب لغة يعني الاختبار من أجل المعرفة والإفادة منها باكتساب الخبرة.

ب- اصطلاحا:

التجريب عملية تتأسس على المعرفة والقدرة على القياس والاختبار تصدر عن ذات مجربة واعية بما تفعل ومقبلة عليه حتى تمتلك الخبرة والدراية بالأمور المجربة أي أنها عملية إخضاع" الشيء" أو" الظاهرة" للتجربة ومتابعتها من أجل دراستها وتقنيتها.

والتجربة في العلم هي:" اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة علمية دقيقة ومنهجية لتكشف عن نتيجة ما أو تحقيق غرض معين[4]" أيضا" المعرفة أو المهارة التي يستخلصها الإنسان من مشاركته في أحداث الحياة أو ملاحظته لها ملاحظة مباشرة".[5]

فيقول صلاح فضل:" التجريب قريب للابداع لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة، فهو جوهر الابداع وحقيقته عندما يتجاوز المألوف"[6].

2/ نشأة التجريب

1.2- عند الغرب

استخدم charles darwin التجريب كمصطلح من حيث أنه(التحرر من النظريات القديمة)، واستعمله" مارتن أسلن martin Esslin" في قوله:((كلمة تجريب مأخوذة في الأساس من العلوم الطبيعية، وحينما يريد المرء أن يعثر على شيء جديد حينئذ عليه أن يجرب))[7].

أما بالنسبة" إميل زولا Émile Zola" الذي يعود له الفضل في إرساء معالم هذا المفهوم من خلال روايته(الرواية التجريبية" le Raman expérimental")، وذلك باشتغاله على الشكل الروائي على محوري الاختلاف والغرابة، كما بدا فيها متأثراً بـــ" كلود برنارد" Claude Bernard من خلال قراءته لكتاب" مدخل إلى دراسة الطب التجريبي"؛ حيث يرى أن((الرواية التجريبية هي نتيجة التطور العلمي للقرن، إنها تستبدل دراسة الإنسان المجرد، الإنسان الميتافيزيقي بدراسة الإنسان الطبيعي الخاضع للقوانين الفيزيائية الكيميائية، والمحدد بتأثيرات الوسط، إنها بكلمة واحدة أدب عصرنا العلمي)).[8]

2.2- عند العرب:

اعتبر كتاب" الأدب التجريبي" (1972) محاولة عربية لتأصيل وتأسيس مصطلح تجريبي يتماشى وطبيعة الرواية العربية، ومزجه بين ما هو غربي وموروث الأصل(التراث العربي) من خلال أن((الأدب التجريبي ليس رفضا مطلقا لتراثنا الأدبي ولا للأدب الغربي المعاصر)) [9]، بمعنى تأطير مبادئ وأسس جديدة تخرج عن المألوف وتحطيم وتيرة الأطر القديمة باعتبار أن المبادئ الأساسية التي يعتمدها الأدب التجريبي هو رفع الحواجز الفكرية التي ظلت تهيمن على القرائح والمواهب طيلة سنوات، وتعطلها في سيرها نحو الخلق، وتبعث فيها عقد النقص ومركبات الاحتقار الذاتي.[10]

ويرى" سعيد يقطين" في إطار حديثه عن التجريب أن الرواية العربية اسست تقاليدها وإشكالاتها وقضاياها متكئة على الوافد الغربي نظرا للغربة الجمالية التي كانت تعيش فيها (...) وذلك أن المنجز الإبداعي ينبني على الكفاءة النقدية لا الروائية، أو تلك الأعمال التي تعيش زمنها بل حداثتها المبدعة((التي تتولد مقولاتها من شرطها التاريخي، وتعيد صياغة الأفكار والأشكال والعلامات وفقا لخصوصيتها الذاتية الغربية))[11].

وقد ارتبط التجريب الروائي العربي بشكل عام بمستوى وافق التحولات الاجتماعية المعرفية، وقد مس كل عناصر الرواية التقليدية من عقدة وحكاية وشخصيات كما يقول" محمد داود"((إن محاولات التجديد أو التمرد على الرواية البلزكية التقليدية ليست جديدة على الإطلاق)).[12]

وصفوة القول لقد حاولت الرواية الجزائرية على غرار الرواية العربية خوض غمار التجريب والانفتاح على كل الأجناس التعبيرية والنصوص والمرجعيات الممكنة رغبة في تحقيق الحداثة السردية.

الهوامش:

1 رؤية العالم عند غولدمان هي الكيفية التي ينظر فيها إلى واقع معين، أو هي النسق الفكري الذي يسبق عملية تحقق النتاج، وهذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل هي واقعة اجتماعية تنتمي إلى طبقة اجتماعية أو مجموعة اجتماعية، فهي- بالتالي- وجهة نظر متناسقة لمجموعة الأفراد. ينظر: جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986م. ص: 229 – 230.

2 المرجع نفسه، ص: 244.

3 ابن منظور(أية الفضل جمال الدين بن مكرم)، لسان العرب، ج1، دار صابر، بيروت- لبنان، ط1، 1990م، ص 216.

4 إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، ج1، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، اسطنبول- تركيا، د ط، د س، ص 114.

5 مجدي وهبة كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، 1989، ص 51.

6 صلاح غضل، لذة التجريب الروائي، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص 03.

7 أحمد سخسوخ، التجريب المسرحي في إطار مهرجان فيينا الدولي للفنون، مطابع هيئة الآثار المصرية، مصر، (دط)، 1998، ص 01.

8 كلود برنارد، بير شارتيه، مدخل إلى نظريات الرواية، تر: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2000، ص 154.

9 خليفة غيلوفي: التجريب في الرواية العربية بين رفض الحدود وحدود الرفض، الدار التونسية للكتاب، (د.ط)، 2012، ص 173.

10 المرجع نفسه، ص 177.

11 عبد الرحيم العلام وآخرون، سؤال الحداثة في الرواية المغربية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د ط)، 1999، ص 128.

12 نقلا عن: محمود الصيغ، اتجاهات التجريب في الشعر المصري المعاصر، مجلة فصول، القاهرة، ع58، 2002، ص 203.